غزوة خَيْبَر

مذبحة بنى قريظة وأثرها فى نفوس اليهود

تركت مذبحة بنى قريظة فى نفوس اليهود أثرًا بالغ العمق بعيد المدى، وشعورًا مضطرب الأحاسيس مختلف النزعات، فظلوا حيارى سادرين لا يدرون ماذا يفعلون.. نارٌ مستعرة فى صدورهم من الألم والغيظ، تغشّيها طبيعة متأصلة فى نفوسهم من الجبن والخور؛ وعاطفة عنيفة من البغض والعداوة، يخالطها إحساس عميق من الخوف والرهبة؛ ورغبة قوية فى الانتقام والتشفى، يدافعها شعور قوى من الإحجام والتردد؛ ونزوع شديد إلى الحرب، يقابله حرص شديد على الحياة.. وكان لهم العذر فى هذه الحيرة، فقد تلقوا من المسلمين ضربات شديدة الوقع كانت تنزل على رءوسهم كالصواعق، وعلمتهم التجارب أن عدوهم هذا مرهوب قوى الشكيمة، وأنه فوق ذلك مؤيّد بقوة الحق، فليس من اليسير أن يغلبه غالب، ولا أن تهزمه قوة فى الأرض مهما عظمت. ولكنهم يريدون أن يطفئوا النيران المتأججة

فى صدورهم، بالانتقام من هذا العدو الذى أذلهم وأرغمهم، وفجعهم فى خيرة أبنائهم من الرجال والأبطال، ومن الزعماء والسادة.

ومع أن اليهود كانوا هم البادين دائماً بالشر، وكانت الدائرة فى كل مرة تدور عليهم، فإنهم لم يرعَوُوا ولم يزدجروا، ولم يأخذوا من الماضى عبرة للحاضر، ولم يحاولوا قط أن يطامنوا من شعور العداوة فى نفوسهم للإسلام ورسوله، وأن يعيشوا مع المسلمين فى سلام ووئام، بل هى فكرة واحدة تملّكتهم وسيطرت على رءوسهم، وتواصَى بها زعماؤهم وسادتهم، هى القضاء على الإسلام وأهله؛ تارة يدفعهم إليها شعور الحسد والغيرة، وتارة يدفعهم إليها شعور العداوة والبغضاء، وتارة يدفعهم إليها حب الانتقام والأخذ بالثأر. وكلما رأوا رُوَاق الإسلام يمتد وقدمه ترسخ، زادت هذه الفكرة فى نفوسهم رسوخًا، فاندفعوا تحت تأثيرها يفكرون ويقدّرون، ويتخذون لتنفيذها الوسائل، ويتلمسون الأسباب، ويتحيَّنون الفرص.

عداوة قديمة متأصلة فى النفوس

وكانت الكلمة التى قالها زعيمهم حيى بن أخطب، منذ رأى رسول الله ﷺ يَقدَم المدينة، هى الدستور الذى أسسته

اليهود جميعًا : "عداوته ـ والله ـ ما بقيت".

كانت هذه الكلمة هى المبدأ الذى استمسك به اليهود منذ ذلك اليوم، والمنهج الذى سار عليه زعماؤهم ودهماؤهم، وظلت الحوادث والأيام تؤرّث نيران هذه العداوة، وتظهرها فى كل مظهر يدل على كراهيتهم لما ينال المسلمين من خير. فمنذ نصر المسلمون على المشركين فى غزوة بدر، أخذ اليهود يصرحون بما فى نفوسهم من الألم لهذا النصر، وذهب شاعرهم كعب بن الأشرف ينـدب قتلى المشركين، ويحرض قريشًا على الانتقام والأخذ بالثأر، ويقع فى أعراض المسلمات بما يقول فيهن من فاحش الشعر، ويؤذى النبى ويأتمر مع اليهود عليه.

فلما لقى مصرعه على أيدى رجال من المسلمين، قام يهود بنى قينقاع يتحدُّون المسلمين ويعتدون على حرماتهم، ويستفزّونهم إلى الحرب بكل جارحة من القول والعمل. فلما أجلاهم المسلمون عن المدينة، قام من بعدهم بنو النضير يحاولون اغتيال رسول الله، صلى الله عليه وسلم. فلما أجلاهم عن المدينة ذهب زعيمهم حيى بن أخطب يحزّب الأحزاب على رسول الله وعلى المسلمين، ويحرض بنى قريظة على الغدر بهم فى أحرج الأوقات وأسوأ الظروف.

فلما لقى جزاءه مع رجال بنى قريظة قام من بعده أبو رافع

- سلام بن أبى الحقَيْق - يؤلب من جديد على رسول الله وصحبه، ويستخدم ماله ونفوذه فى تجميع القبائل لحربهم. فلما لقى مصرعه قام من بعده أسَيْر بن رِزَام، فجعل ينهج منهجه ويسير على خطاه، وأخذ يجتمع ببنى غطفان ليعقد معهم العقود والاتفاقات، ليكونوا مع اليهود عند دخول أهل خيبر فى حرب مع المسلمين.

كان الرسول يحاول جهده أن يسالم اليهود فتغلبهم طبيعة الغدر فيهم

وهكذا كانت حياة اليهود مع المسلمين سلسلة من الضغائن والأحقاد لا تهدأ ولا تنقطع، ولكن النبى ﷺ مع هذا لم يكن يود أن يساير اليهود فى خصومتهم، ولا أن يبادلهم عداوة بعداوة، بل كان يتلمس الفرص تلمسًا ليصلح ما بينه وبينهم؛ ولم يكن يباديهم بعدوان قط حتى يُعْذِر إليهم، وحتى يبذل كل جهد مستطاع فى دعوتهم إلى السلام والوئام والتعاون. فلما تولى زعامة اليهود فى خيبر أسير بن رزام هذا، وعلم رسول الله ﷺ أنه يُعِد لحربه، رأى أن يدعوه قبلُ إلى السلم، فلعله أن يكون أبعد نظرًا ممن سبقه من الزعماء، فينقذ قومه من سعير الحرب التى أكلتهم. فبعث إليه عبد الله بن رواحة فى ثلاثين من رجال الأنصار، فقدموا عليه فى خيبر فقالوا له: "هل نحن

آمنون حتى نعرض عليك ما جئنا لـه"؟ قـال: "نعـم، ولى منكم مثل ذلك"؟ قالوا: "نعم". ثم عرضوا عليـه أن يـترك ما عزم عليه من الحـرب، وأن يقـدّم على رسـول الله ليحـالفه ويوليه على خيبر، ويعيش أهلهـا مـع المسـلمين فى سـلام، فاستجاب لذلك أولَ الأمر، وخرج مع المسلمين فى ثلاثين رجلا من اليهود، قاصدًا إلى رسول الله، صلى الله عليـه وسـلم. فلما قطع مرحلة من الطريق ندم على خـروجه، وهـم بـالغدر بمـن أمّنهم وأمنوه، وأهوَى إلى سيف عبد الله بـن رواحـة يـريد أن ينتزعه منه ليقتله، ففطن لذلك عبـد الله فقـال لـه: "أغـدرًا يا عدو الله"؟ ثم نزل فضربه بـالسيف ضربـة أطـاحت فخـذه بساقه، فسقط عن بعيره، ثم لم يلبث أن هلك، ومال المسلمون على من كان معه من اليهود فقتلوهم.

كان فى عزم اليهود أن يغزوا المدينة فبادرهم الرسول بالغزو فى بلادهم

ولما قام سلّام بن مِشْكَم زعيما على يهود خيبر بعد أسير بن رزام، كان رأيه فى محاربة المسلمين كرأى من سـبقه مـن زعماء يهود. وهكذا ظل اليهود مقيمين على نية الغدر، مُبَيِّتين لفـكرة الانتقام، عازمين على القضاء على الإسلام بكل وسـيلة ممـكنة.

فلما تم الصلح بين رسول الله ﷺ وقريش فى الحديبية واتفقوا على أن يتهادنوا ويأمن بعضهم بعضًا، يئس اليهود من معاونة العرب لهم، وصرح سلاّم بن مشكم لزعماء خيبر بأن خطرًا يتهدد كيان اليهود فى الحجاز، وأبان لهم أن الواجب عليهم أن يبادروا إلى تأليف كتلة منهم ومن يهود وادى القرى وتيماء، ثم يزحفوا على يثرب، دون أن يعتمدوا على البطون العربية فى هذه الغزوة.

"وقد علم الرسول ﷺ بما يدور فى خلد يهود خيبر، فأخذ يتهيأ لقتالهم"[1] وكانت خطته، صلى الله عليه وسلم، أن يفاجئ أعداءه قبل أن يفاجئوه، ولكن عبد الله بن أبى - فيما يقول بعض الرواة - أرسل إلى يهود خيبر يقول لهم: "إن محمدًا سائر إليكم فخذوا حذركم". فلما سمعوا بقصده أخذوا يُعِدون له، فكانوا يخرجون كل يوم فى عشرة آلاف مقاتل، متسلحين مستعدين صفوفًا ثم يقولون: "محمدًا يغزونا..؟ هيهات هيهات..!" وأدخلوا أموالهم وعيالهم فى حصون «الكتيبة» وجمعوا المقاتلة فى حصون «النَّطاة».

(١) تاريخ اليهود فى بلاد العرب.

مناطق خيبر وحصونها

وكانت بلاد خيبر مقسمة إلى ثلاث مناطق حربية: الأولى منطقة النطاة، والثانية منطقة الشِّق، والثالثة منطقة الكتيبة. وكان فى كل منطقة عدة حصون منيعة؛ فمن حصون منطقة النطاة حصن ناعم، وحصن الصعب بن معاذ، وحصن الزبير وهو حصن قُلَّة؛ ومن حصون منطقة الشق حصن أبىّ، وحصن البرىء؛ ومن حصون منطقة الكتيبة حصن الوَطِيح، وحصن السُّلالم، وحصن القَمُوص وهو حصن نِزَار. وكانت تلك الحصون منيعة على رءوس الجبال، وكان رجالها مدربين قد مارسوا القتال والنضال، وكانت جموع اليهود فى خيبر من أقوى الطوائف الإسرائيلية بأسًا، وأوفرها مالا وأكثرها سلاحًا. ولكن اليهود - كعادتهم - يخشون الحرب فى الميدان، ولا يحاربون إلا أمام الحصون، حتى إذا انهزموا عادوا إلى حصونهم وأغلقوها دونهم. وقد سجل القرآن عليهم هذه الخصلة من خصال الجبن، إذ يقول الله تعالى فى تهوين شأنهم للمؤمنين:

﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وراء جُدُرٍ

بأسُهُم بينَهُمْ شَديدٌ تَحسَبُهُمْ جميعًا وقُلُوبُهُمْ شتَّى ذلِكَ بأنَّهُمْ قَوْمٌ لا يعْقِلُونَ﴾[1].

وعرف الرسول ﷺ فيهم هذه الطبيعة، فوضع خطته على أساسها حين صار إليهم ليغزوَهم فى عُقر دارهم.

وتقع خيبر من المدينة على نحو مائة ميل إلى الشمال، بينها وبين الشام، وهىَ مسافة تقطع بالإبل فى خمسة أيام. وكانت واحةً كبيرة خصبة، ذات حصون ومزارع ونخل كثير؛ ولم يكن سكانها مجتمعين فى صعيد واحد، بل كانوا متفرقين فى الأودية المتجاورة، يقطُنون بيوتًا حصينة وسط النخيل والحقول، وكانت لمنعة حصونها وطبيعة أرضها لا يظن اليهود أن الرسول يستطيع أن يغزوها.

كان غزو خيبر مقصورًا على من شهد الحديبية

وقد خرج صلى الله عليه وسلم إلى خيبر فى شهر المحرم من السنة السابعة (أغسطس ٦٢٨) فى ألف وستمائة من أصحابه، بينهم مائتان من الفرسان على ظهور الخيل؛ واستخلف على المدينة سِبَاع بن عُرفُطة. وكان قد استنفر مَن حوله من

(١) سورة الحشر الآية ١٤.

الأعراب ممن شهد الحديبية يغزون معه، فجاء الذين تخلفوا عنه في غزوة الحديبية ليخرجوا معه، طمعًا في الغنيمة، فقال لهم: «لا تخرجوا معي إلا راغبين في الجهاد، فأما الغنيمة فلا».. وسار صلى الله عليه وسلم بجيشه سيرًا حثيثًا فقطع المسافة على طولها في ثلاث مراحل مجهدة، حتى بلغ أرض خيبر في فجر اليوم الرابع. فلما بلغها نزل منها بواد يقال له «الرَّجيع»، بين خيبر وغطفان، ليحول بين غطفان وبين أن يُمِدّوا أهل خيبر، وكانوا مظاهرين لهم.

ويقول بعض الرواة: إن غطفان أرادوا أن يظاهروا يهود خيبر، ولكنهم بعد ما خرجوا سمعوا صياحًا في ديارهم، فخيل إليهم أن المسلمين قد خالفوهم إلى أموالهم وأهليهم، فرجعوا. ويقول آخرون: إن رسول الله ﷺ طلب إلى غطفان ألا يعينوا يهود خيبر، على أن يعطيهم من خيبر شيئًا سمّاه لهم. وعلى كلّ فإن غطفان لم يعينوا يهود خيبر في هذه الغزوة، وخلّوا بين رسول الله وبينهم.

اعتصم اليهود بحصونهم حين رأوا المسلمين

ونزل صلى الله عليه وسلم قريبًا من حصون النطاة، فقال له الحُباب بن المنذر: "إن أهل النطاة ليس قوم أبعد مدًى

منهم، ولا أعدلَ رمية منهم؛ وهم مرتفعون علينا وهو أسرع لا نحطاط رميهم، ولا نأمن من بَيَاتهم، يدخلون فى حُمر النخل؛ فتحوّل يا رسول الله". فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «أشرت بالرأى». وتحول إلى مكان بعيد عن مدى النبل فعسكر به. وعَمَّى الله على أهل خيبر ما كان من أمر رسول الله ﷺ وجيشه، فباتوا بيَات المطمئن الآمن؛ حتى إذا أصبحوا خرج عمالهم بمَسَاحيهم ومكاتلهم غادين إلى أعمالهم. فلما رأوا رسول الله وأصحابه قد نزلوا بساحتهم، أخذوا من الرعب والهول، فجعلوا يصيحون: "محمد والخميس..! محمد والخميس..!" وأدبروا هاربين إلى قومهم، ينذرونهم بما ينتظرهم من الويل وسوء المصير. وكأنما رأى رسول الله ﷺ أن يزيد فى فزع القوم، فصاح فى أعقابهم مكبرًا: «الله أكبر، خَرِبت خيبر! إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذَرين»..

واستيقظ أهل خيبر على هذا الصياح المرعب، فإذا هم قد أحيط بهم، وأصبحوا وليس لهم بد من أن يسلموا أو يقاتلوا إلى آخر رجل منهم؛ وأخذت عليهم المفاجأة كل طريق للهجوم، فلم يبق أمامهم وسيلة إلا الدفاع. وهنا عاد اليهود إلى طبيعتهم، فلجأوا إلى الحصون فاعتصموا بها، ﴿وظنُّوا أنهم

مانِعَتُهم حصونُهم من الله فأتاهم الله من حيثُ لم يحتَسِبُوا وقَذَف فى قلوبهم الرُّعب﴾[1].

* * *

وكان رسول الله ﷺ يعلم من طبائع اليهود شدة الحرص على المال، وأن مالهم قد يكون أحب إليهم من أنفسهم؛ فرأى أن يرهبهم بإتلاف بعض مالهم، لعلهم يسلمون إليه دون قتال؛ فأمر بقطع نخيلهم؛ فأخذ المسلمون يقطعونها حتى قطعوا نحو أربعمائة نخلة. فلما رأى تصميم اليهود على الحرب نهى عن قطع النخيل، وابتدأ القتال معهم فى حصن ناعم. وكان اليهود قد حشدوا قواتهم فى ذلك الحصن، وجعلوا قائدهم عليه سلام ابن مشكم، وأعدوا أنفسهم لمعركة طاحنة.

طبيعة القتال فى أرض خيبر

"وبدأ النبى معركة الحصار فى قتال عنيف، قريب المرمى متصل الاشتباك، واليهود يستميتون فى الدفاع عن كل شبر من الأرض، لا ينزلون عنه إلا مرغمين؛ وكلما حاولوا الخروج من الحصن دحرهم المسلمون، فارتدوا إلى الحصن ليحتموا وراء جدرانه القوية"[2]. . وطال الحصار واشتد القتال حتى جُهد

(١) سورة الحشر لآية ٢

(٢) محمد القائد.

المسلمون، ومكث رسول الله ﷺ سبعة أيام يقاتل أهل هذا الحصن، وهو يعطى الراية فى كل يوم واحدًا من أصحابه، ويبعثه إلى الحصن، فيرجع ولم يصنع شيئًا، حتى فتحه الله على يد علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه.

وفى معركة هذا الحصن قتل البطل اليهودى «مَرْحَب»، وكان من أشجع شجعان اليهود؛ قتله على بن أبى طالب وهو يبارزه؛ وقيل: إن الذى قتله هو محمد بن مسلمة. وفى معركته أيضًا قتل محمود بن مسلمة أخو محمد بن مسلمة، ألقيت عليه رَحًى وهو مستند إلى جدار الحصن، يستظل به فى يوم شديد الحر. وفى أثناء هذا الحصار تُوفى زعيم اليهود سلام بن مشكم، فتولى القيادة بعده الحارث بن أبى زينب.

ولما سقط حصن ناعم فر اليهود إلى الحصن الذى وراءه - وهو حصن الصعب بن معاذ - فاعتصموا به، وقاتلوا المسلمين قتالا شديدًا، وحملوا عليهم حملة منكرة؛ فانكشف المسلمون حتى انتهوا إلى رسول الله ﷺ وهو واقف قد نزل عن فرسه؛ وثبت الحبابُ بن المنذر، رضى الله عنه، فحض رسول الله الناس على الجهاد فأقبلوا، وزحف بهم الحباب بن المنذر، فانهزم اليهود وأغلقوا الحصن عليهم؛ ولكن المسلمين اقتحموا الحصن، وجعلوا يقتلون ويأسرون حتى فتحوه عَنْوَة.

وقد وجد المسلمون فى ذلك الحصن من الشعير والتمر والسمن والزيت والعسل والمتاع شيئًا كثيرًا، وكانوا قد أصابتهم مجاعة قبل أن يفتحوه حتى أكلوا لحوم الخيل. فلما فتحه الله عليهم ووجدوا به ما وجدوا من الطعام والوَدَك[1]، خشى رسول الله ﷺ عليهم أن تشغلهم الغنيمة عن القتال، فبعث مناديًا ينادى فى الناس: أنْ «كلوا واعلفوا ولا تَحْمِلوا»: أى لا تخرجوا بشىء منه إلى بلادكم.

خونة اليهود يدلون الرسول على مخابئهم

وفى ذلك الحصن وجد المسلمون فى بيت تحت الأرض منجنيقًا ودبابات ودروعًا وسيوفًا وكثيرًا من آلات الحرب، فانتفعوا بها فى هذه المعركة أيما انتفاع. وكان الذى دلهم عليه رجل من اليهود، أسره المسلمون وهم يحاصرون حصن ناعم، فخاف على نفسه أن يقتل، فاستأمن رسول الله ﷺ على نفسه وأهله حتى أمنه، ثم أخبره بما كان فى حصن الصعب من آلات الحرب، ودله على مكانها حين فتح.

ولما سقط حصن الصعب بن معاذ فر اليهود إلى حصن

---

(١) الودك: السمن والزيت ونحوهما.

الزبير، وكان حصنًا منيعًا قائمًا على رأس قُلَّة[1]؛ فحاصره المسلمون ثلاثة أيام، وظل اليهود معتصمين به لا يخرجون منه، فاستعصى على المسلمين فتحه. حتى علم رسول الله ﷺ من أحدهم أن وراء الحصن جدولا يُمِد أهله بالماء، فأمر بقطعه عنهم فلما قطع عنهم الماء خرجوا من الحصن، وقاتلوا عنه أشد قتال، حتى قتل يومئذ من المسلمين نفر، وأصيب من اليهود عشرة؛ ثم فتحه الله على المسلمين، فكان آخر حصن فى منطقة النطاة. وبسقوط هذا الحصن سقطت منطقة النطاة كلها فى أيدى المسلمين، وفر اليهود منها إلى منطقة الشَّق، فاعتصموا بأول حصن من حصونها وهو حصن أبىّ.

وكان حصن أبىّ على جبل يقال له «شمران»، فحاصره المسلمون، فقاتلهم اليهود قتالا شديدًا، وتبارز فى معركته شجعان الفريقين، ثم تحامل المسلمون على الحصن، يتقدمهم أبو دجانة الأنصارى حتى دخلوه. فهرب من فيه من المقاتلة، وجعلوا يقتحمون الجدُر إلى حصن البرىء، فتمنعوا به أشد التمنع.

وزحف رسول الله ﷺ إليهم فى أصحابه، فكانوا أشد أهل الشق رميًا بالنبال والحجارة، حتى أصاب النبل ثياب رسول الله

(١) القلة: قمة عالية.

وعَلِق بها: فأمر صلى الله عليه وسلم أن يُنْصَب عليه المنجنيق، فوقع فى قلوب أهله الرعب، فأسلموا الحصن وهربوا. وبذلك سقطت منطقة الشق كما سقطت من قبل منطقة النطاة.

وذهب اليهود إلى منطقة الكتيبة فاعتصموا فيها بحصن «القَمُوص»، وهو حصن بنى الحُقَيْق؛ وكان من الحصون المنيعة القوية، وكان تحت قيادة بعض الأشراف من بنى الحقيق، وكان فيه نساء هذه الأسرة. فتحول رسول الله ﷺ بأصحابه إلى حصن القموص فحاصره عشرين ليلة، ثم فتحه الله على يد على بن أبى طالب، رضى الله عنه. وقد سُبِى من هذا الحصن جمع من النساء والذرارى، من بينهم صفية بنت حُيَىّ؛ وقد اصطفاها رسول الله ﷺ من بين السبايا، فأعتقها وتزوجها، فكانت من أمهات المؤمنين.

سقوط خيبر

ولما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم من حصونهم ما افتتح، وحاز من أموالهم ما حاز، انتهوا إلى حصنى الوَطِيح والسلالم، وكانا آخر حصون خيبر؛ فحاصرهم رسول الله بضع عشرة ليلة، حتى إذا أيقنوا بالهلكة سألوا رسول الله ﷺ أن يستسلموا بحقن دمائهم.. ونزل كنانة بن الربيع بن أبى الحقيق،

فصالح رسول الله على أن يحقن دماء من فى حصونهم من المقاتلة، ويترك الذرية لهم، ويخرجون من خيبر وأرضها بذراريهم، ويخلون بين رسول الله وبين ما كان لهم من أرض ومال وخيل وسلاح. فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «وبَرِئَت منكم ذمة الله وذمة رسوله إن كتمتمونى شيئًا».. فصالحوه على ذلك.

وبتسليم حصنى الوطيح والسلالم سقطت خيبر كلها فى أيدى المسلمين، وغنم المسلمون ما كان فيها من غنائم كثيرة.

الصلح بين اليهود والمسلمين

ولما تم الصلح بين رسول الله، صلى الله عليه وسلم وأهل خيبر، رغبت نفوسهم عن الهجرة من بلادهم، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخليهم ليعملوا فى الأرض ويعطوه نصف ثمارها، وقالوا له: "نحن أعلم بها منكم وأعمر لها". فأبقاهم رسول الله ﷺ، فى الأرض يعملون بها، وصالحهم على النصف، على أنه إذا شاء أن يخرجهم أخرجهم.

يهود فدك ووادى القرى يجنحون إلى السلم

ولما سمع يهود «فَدَك» بما كان من الصلح بين رسول الله ﷺ وأهل خيبر، رغبوا عن الحرب وجنحوا إلى السلم، وبعثوا

إلى رسول الله أن يصالحوه على ما صالحه عليه أهل خيبر، فأجابهم إلى ذلك. وتم الصلح بينهم وبين رسول الله، صلى الله عليه وسلم، دون قتال؛ فكانت خيبر فَيْئًا بين المسلمين لأنهم فتحوها عَنْوَة. وكانت فدك خالصة لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، لأنهم لم يُوجِفوا عليها بخيل ولا ركاب[1].

ولما فرغ رسول الله ﷺ من أهل خيبر انصرف إلى «وادى القرى»، فحاصر أهلها ليالى حتى سلموا وأذعنوا للصلح، فصالحهم على ما صالح عليه أهل خيبر. أما يهود «تَيماء» فقبلوا الجزية من غير حرب ولا قتال. وبذلك دانت اليهود كلها لسلطان النبى، وانتهى كل ما كان لهم من سلطان فى بلاد العرب، وأصبح المسلمون بمأمن من ناحية الشمال إلى الشام، كما صاروا بعد صلح الحديبية بمأمن من ناحية الجنوب.

تقسيم الغنائم

وقسم رسول الله ﷺ غنائم خيبر بعد أن خمَّسها، فأعطى الراجل سهمًا وأعطى الفارس ثلاثة أسهم، وأعطى من خُمسه ما أراه الله؛ فأعطى أهله، وأعطى رجالا ونساء من بنى عبد المطلب، وأعطى اليتيم والسائل. أما من شهد خيبر من

(١) لم يوجفوا: لم يأخذوها بقتال.

العبيد والنساء فرَضَخ لهم[1] شيئًا من الغنيمة ولم يُسْهم لهم.

وبينما المسلمون فى فرحهم بفتح خيبر، قدم عليهم جعفر بن أبى طالب فيمن هاجر معه من المسلمين إلى الحبشة؛ فسُر رسول الله ﷺ سرورًا عظيما بقدومهم، وضم جعفرًا وقبله بين عينيه وقال: «ما أدرى بأيهما أنا أسَرّ[2]، بفتح خيبر، أم بقدوم جعفر»؟

(١) رضخ لهم: أعطاهم قليلا.
(٢) أسر: أكثر سرورًا.

مغانم خيبر

كانت مغانم خيبر شيئًا كثيرًا جدًا

﴿لقدْ رَضِىَ الله عن المُؤمنِينَ إذْ يُبايعُونَكَ تحت الشَّجرَةِ فعَلِم ما فى قُلُوبهِمْ فَأنْزَل السَّكِينَةَ عَلَيْهم وَأثَابَهُمْ فَتْحًا قريبًا * وَمَغَانمَ كثيرةً يأْخُذُونَها وَكَانَ الله عَزيزًا حكيمًا﴾[1].

فسر جمهور المفسرين «الفتح القريب» بفتح خيبر و «المغانم الكثيرة» بمغانمها. وكان فتح خيبر بعد «بيعة الرضوان» بنحو شهرين، وكانت مغانمها أكثر مغانم حصل عليها المسلمون مذ غزوا فى سبيل الله حتى ذلك اليوم؛ فقد كانت خيبر واحة خضراء فى صحراء مقفرة، وكانت أرضها غنية بالنخيل والزرع، وكانت غَلاّتها من التمر والقمح والشعير شيئًا كثيرًا، فقد رُوِى أن عبدالله بن رواحة خَرَص[2] ما فيها من التمر بأربعين ألف وَسْق، والوسق حمل بعير؛ كما روى أن «الكتيبة» وحدها

(١) سورة الفتح آيتا ١٨، ١٩.

(٢) الخرص: تقدير الشيء وزنًا أو كيلا أو عددًا على وجه التقريب.

ـ وهى خُمس الله ورسوله ـ كان بها أربعون ألف عِذْق[1]، وكانت تُخرَص ثمانية آلاف وسق من التمر، وربما اجتمع فيها ألف صاع[2] من النوى، وكان يزرع فيها الشعير فيحصدون منه ثلاثة آلاف صاع؛ هذا إلى ما كان فيها من الأنعام والمتاع والخيل والسلاح.

روَى البخارى ـ بسنده إلى عكرمة ـ أن عائشة أم المؤمنين، رضى الله عنها، قالت: «لما فُتحت خيبر قلنا: الآن نشبع من التمر». وروَى كذلك ـ بسنده إلى سالم مولى عبدالله بن مطيع ـ أنه سمع أبا هريرة يقول: "افتتحنا خيبر فلم نغنم ذهبًا ولا فضة، إنما غنمنا الإبل والبقر والمتاع والحوائط".

وروى أبو داود ـ بسنده إلى عقبة بن عامر ـ «أن النبى، صلى الله عليه وسلم، قال لرجل: «أترضى أن أزوجك فلانة»؟ قال: "نعم". وقال للمرأة: «أترضين أن أزوجك فلانًا»؟ قالت: "نعم". فزوج أحدَهما صاحبَه، فدخل بها الرجل ولم يَفْرِض لها صَداقًا ولم يعطها شيئًا. وكان ممن شهد الحديبية، وكان مَن شهد الحديبية له سهم بخيبر. فلما حضرته الوفاة قال: "إن رسول الله زوجنى فلانة ولم أفرض لها صداقًا ولم أعطها

(١) العذق (بالفتح): النخلة بحملها، و (بالكسر) الكباسة: أى العرجون بلحه.
(٢) الصاع: قدحان وثلث بكيل مصر.

شيئًا. وإنى أشهدكم أنى أعطيتها من صَداقها سهمى بخيبر". فأخذت سهمًا فباعته بمائة ألف»[1]. وهو سهم واحد من ألف وثمانمائة سهم قسمها رسول الله على أهل الحديبية.

تقسيم المغانم

قال ابن إسحاق: "كانت المقاسم على أموال خيبر على الشق ونطاة والكتيبة، فكانت الشق ونطاة فى سُهْمان المسلمين، وكانت الكتيبة خُمس الله وسهم النبى، صلى الله عليه وسلم، وسهم ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، وطُعْمَ أزواج النبى، صلى الله عليه وسلم، وطعم رجال مشوْا بين رسول الله وبين أهل فدك بالصلح.. وقُسمت خيبر على أهل الحديبية، من شهد خيبر منهم ومن غاب عنها.. وكانت عدة الذين قسمت عليهم خيبر من أصحاب رسول الله ألف سهم وثمانمائة، برجالهم وخيلهم: الرجال أربع عشرة مائة والخيل مائتا فرس، فكان لكل فرس سهمان ولفارسه سهم، وكان لكل راجل سهم".

وقسم رسول الله ﷺ الكتيبة بين قرابته ونسائه. فأطعم كل امرأة من أزواجه ثمانين - وقيل مائة - وسق من تمر، وعشرين

(١) هكذا ذكر النويرى فى نهاية الأرب. والمظنون أنها مائة ألف درهم.

وسقًا من شعير، وللعباس بن عبد المطلب مائتي وسق[1]، ولفاطمة وعليّ ثلاثمائة وسق، ولأسامة بن زيد مائتين وخمسين وسقًا؛ وأعطى رجالا ونساء من المسلمين بحسب حاجتهم. وقد فصّل ابن إسحاق هذه الأعطيات بأسمائها وأعدادها، فبلغت مقاديرها نحو ثلاثة آلاف وسق من القمح والشعير والتمر والنوى.

هذا على اعتبار أن خيبر قسمت بكمالها بين الغانمين؛ وقد رُوى أن خيبر جميعها لم تقسم، وإنما قسم النبي ﷺ نصفها بين الناس وعزل النصف الثاني لمن نزل به من الوفود والأمور ونوائب الناس. روى ذلك أبو داود بسنده إلى سهل بن أبي حَثْمة. قال ابن كثير: "وقد احتج بهذا مالك ومن تابعه على أن الإمام[2] مخير في الأرض المغنومة، إن شاء قسمها، وإن شاء أرصدها لمصالح المسلمين، وإن شاء قسم بعضها وأرصد بعضها لما ينوبه في الحاجات والمصالح".

وعلى هذه الرواية يكون ما ذكر من هذه الأقسام من نصف خيبر لا من خيبر كلها، مما يدل على أن خيبر كانت مغنمًا عظيمًا، فتح الله به على المسلمين أبوابًا من الخير واسعة. فإذا

---

(١) لم يفصل المقريزي في «إمتاع الأسماع» نصيب العباس ومن بعده إن كان تمرًا أو شعيرًا أو هما معًا.

(٢) الإمام: هو أمير المؤمنين أو من ينوب عنه من الحكام.

أضيف إلى غلات خيبر ما كان من غلات فدك ووادى القرى وتيماء، تبين لنا مبلغ الغُنْم الذى أفاده المسلمون من هذا الفتح، والذى أثابهم الله به على ما كان من إخلاصهم فى بيعة الرضوان.

بهذه الغزوة أمن المسلمون شر اليهود

هذا إلى ما كان من إخضاع ذلك العدو المبين، الذى جعل سلاحه المكر والغدر، والكذب والتدليس، والدس بين المسلمين، والتشكيك فيما أنزل الله على رسوله، والتأليب على الإسلام وأهله؛ وجعل هدفه أن يقضى على هذا الدين بكل وسيلة مستطاعة. فلما خَضَد الله شوكته وأذهب صولته وأذل كبرياءه، أمن المسلمون شرّ هذا العدو، كما أمنوا شرّ قريش بصلح الحديبية؛ وهذا كل ما كان يبغيه رسول الله ﷺ من مقاتلة اليهود.

فأقامهم رسول الله فى الأرض يعملون بها وتزوج منهم صفية بنت حيى

من أجل هذا رضى صلى الله عليه وسلم أن يقيم اليهود فى أرض خيبر ويشاطرهم ثمارها، بعد أن نزل من نزل من أهلها

على الجلاء وترك الأموال[1]؛ ذلك أنه لم تكن هناك غاية يبغيها رسول الله من تقتيلهم أو إخراجهم من الأرض بعد أن ألقوْا سلاحهم، وبعد أن خُضِدت شوكتهم وأمن المسلمون جانبهم.

ولم يزل صلى الله عليه وسلم حريصًا على أن تقوم العلاقة بينه وبينهم على أساس من المودة والصفاء، لا على العداوة والبغضاء؛ فاتخذ فيهم صهرًا؛ واصطفى من نسائهم صفية بنت حيى، فخيرها بين أن يُعْتِقها ويتزوجها وبين أن يُلحقها بأهلها، فاختارت أن تكون له زوجة؛ فأعتقها وجعلها من نسائه، ولم يدخر وسعًا فى تطييب نفسها، وإزالة ما كان يستكن فى قلبها من كوامن العداوة، حتى رُوِى عنها أنها قالت: "كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من أبغض الناس إلىّ: قتل زوجى وأبى! فما زال يعتذر إلىّ ويقول: «إن أباك ألَّب علىّ العرب، وفعل وفعل..» حتى ذهب ذلك من نفسى".

عاملهم بالرفق والعدل

وكان صلى الله عليه وسلم رفيقًا بهم، حريصًا على إقامة العدل فى معاملتهم، جاهدًا فى أن يزيل من نفوسهم آثار هذه العداوة؛ فلم تكن العداوة بينه وبينهم عداوة شخصية، إنما كانت

(١) أى بعد أن قبلوا ذلك وسلموا به.

خلافًا على العقيدة التى غيروا فيها وبدلوا، ﴿حَسَداً من عندِ أنفُسِهم من بَعْد ما تبيَّن لهمُ الحقُّ﴾[1].

فقد رُوِى أن بلالا مر بصفية وابنة عم لها على قتلى اليهود، فصاحت ابنة عمها صياحًا شديدًا؛ فكره رسول الله ﷺ ما صنع بلال وقال: «ذهبت الرحمة منك؟ تمرّ بجارية حديثة السن على القتلى»!! فقال: "يا رسول الله، ما ظننت أنك تكره ذلك، وأحببت أن ترى مصارع قومها".. وأقسم لا يفعل ذلك أبدًا.

وروِى أن اليهود شكَوْا إلى رسول الله ﷺ أن المسلمين يقعون فى حرثهم وبقْلهم بعد الصلح؛ فأمر رسول الله بجمع المسلمين ثم قام فيهم، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إن يهودَ شكوا إلىَّ أنكم وقعتم فى حظائرهم؛ وقد أمَّنّاهم على دمائهم وعلى أموالهم التى فى أيديهم فى أراضيهم، وعاملناهم[2]. وإنه لا تَحِلُّ أموال المعاهَدين إلا بحقها»... فكان المسلمون لا يأخذون من بقولهم شيئًا إلا بثمن.

وكان صلى الله عليه وسلم يبعث عبدالله بن رواحة إلى أهل

---

(١) سورة البقرة الآية ١٠٩.

(٢) عاملناهم: عاهدناهم على أن تكون الأرض لهم يعملون فيها ولنا نصف ثمارها وغلاتها.

خيبر، خارصًا[1] بين المسلمين ويهود، فيَخْرُص عليهم؛ فإذا قالوا: "تعدَّيت علينا"، قال: "إن شئتم فلكم، وإن شئتم فلنا". فتقول يهود: "بهذا قامت السموات والأرض!".

وروى البخارى - بسنده إلى أبى سعيد الخُدْرِى وأبى هريرة - أن رسول الله ﷺ استعمل رجلا على خيبر، فجاء بتمر جنيب[2]، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «أكل تمر خيبر هكذا»؟ قال: "لا والله يا رسول الله، إنا لنأخذ الصاع من هذا بالصاعين، والصاعين بالثلاثة". فقال: «لا تفعل. بع الجمْع بالدراهم، ثم ابْتَعْ[3] بالدراهم جنيبًا».

وكان بين المغانم التى غنمها المسلمون من خيبر صحائفُ من التوراة، فجاء اليهود يطلبونها فأمر النبى ﷺ بتسليمها إليهم. وفى ذلك يقول الدكتور إسرائيل ولفنسن: "ويدل هذا على ما كان لهذه الصحائف فى نفس الرسول من المكانة العالية، مما جعل اليهود يشيرون إليه بالبنان، ويحفظون له هذه اليد، حيث لم يتعرض بسوء لصحفهم المقدسة، ويذكرون بإزاء ذلك ما فعله الرومان حيث تغلبوا على أورشليم وفتحوها سنة ٧٠ قبل الميلاد،

---

(١) خارصًا: مقدرًا مقادير الغلات والثمار، وقاسمها بين الفريقين.

(٢) الجنيب: أجود التمر.

(٣) ابتع: أى اشتر.

إذ أحرقوا الكتب المقدسة وداسوها بأرجلهم؛ وما فعله المتعصبون من النصارى فى حروب اضطهاد اليهود فى الأندلس، حيث أحرقوا أيضًا صحف التوراة. هذا هو البَوْن الشاسع بين الفاتحين ممن ذكرناهم وبين رسول الإسلام".

لم يحفظ اليهود الجميل وجروا على طبيعتهم فى الغدر

هل قدر اليهود كل هذا؟ وهل حفظوا هذا الجميل؟ وهل أدركوا أن رسول الإسلام لم يكن يريد بهم شرًّا، وأن مبادئ الإسلام إنما تقوم على الحق والعدل واحترام الناس، وأن الإسلام يعدل فى أعدائه كما يعدل فى أوليائه؟ وهل عرفوا أن محمدًا أصدق الناس قولا، وأكثرهم عدلا، وأطهرهم قلبًا، وأرقهم عاطفة؟

لم يقدر اليهود من كل هذا شيئًا، بل ظلوا على ما هم عليه من خبث الطوِيَّة ونكران الجميل، وظلت قلوبهم تغلى بالحقد على رسول الله ﷺ فعادوا إلى قديم عادتهم يفكرون فى الغدر به ويتآمرون للقضاء عليه؛ فوكلوا أمر ذلك إلى امرأة من نسائهم الموتورات، فدبرت لذلك حيلة ماكرة.

قال ابن إسحاق: «فلما اطمأن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أهدت له زينب ابنة الحارث - امرأة سلام بن مشكم -

شاة مَصْلِيَّة[1]، وقد سألت: "أى عضو من الشاة أحبُّ إلى رسول الله"؟ فقيل لها: "الذراع". فأكثرت فيها من السم، ثم سَمّت سائر الشاة ثم جاءت بها. فلما وضعتها بين يدى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، تناول الذراع، فلاكَ منها مُضْغة فلم يُسِغْهَا. ومعه بشر بن البراء بن معرور قد أخذ منها كما أخذ رسول الله، صلى الله عليه وسلم. فأما بشر فأساغها، وأما رسول الله فلفَظها ثم قال: «إن هذا العظم ليُخبِرُنى أنه مسموم»! ثم دعا بها فاعترفت، فقال: «ما حملك على ذلك»؟ قالت: "بلغتَ من قومى ما لم يَخف عليك، فقلت: إن كان ملكًا استرحتَ منه، وإن كان نبيًّا فسيُخبَر". فتجاوز عنها رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ومات بِشْر من أكلته التى أكل».

اهتمام قريش بأنباء خيبر

كان فتح خيبر حدثًا عظيمًا ارتجت له قريش، وكان اهتمامها به بالغًا حدّه؛ فقد أخذت ترقب النتيجة وتتخرّص بها منذ علمت أن رسول الله ﷺ قد توجه إلى خيبر. وكانوا فى ذلك فريقين: فريق ينظر إلى قوة اليهود ومنعة حصونهم وكثرة عددهم وعدتهم، وإلى ما كان من التحالف بينهم وبين غطفان.. فيقول

---

(١) مصلية: مشوية.

"تظهر يهود وحلفاؤها". وفريق ينظر إلى ماضي المسلمين وما كان من قوة قلوبهم، ودقة نظامهم، وحسن تعاونهم، واستهانتهم بالموت فى سبيل عقيدتهم.. فيقول: "يظهر محمد وأصحابه".. وتحمس كل فريق لرأيه حتى كان بينهم على ذلك تراهُن عظيم، وجعلوا يتنسَّمون الأخبار ويترقبون النتائج بشوق شديد وصبر فارغ، حتى لقد كانوا يقفون بأفواه الطرق يسألون كل قادم عما كان بين محمد ويهود.

(قالوا): «وكان الحجاج بن علاط السُّلَمى قد أسلم وشهد خيبر مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم؛ فلما فُتحت خيبر قال: "يا رسول الله، إن لى بمكة مالا عند صاحبتى أم شيبة بنت أبى طلحة، ومال مفرّق فى تجار أهل مكة، فَأْذَنْ لى يا رسول الله". فأذن له، فقال: "إنه لابد لى يا رسول الله من أن أقول". قال: «قل». قال الحجاج: فخرجت، حتى إذا قدمت مكة وجدت بثَنِيَّة البيضاء رجالا من قريش يتسمعون الأخبار، ويسألون عن أمر رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وقد بلغهم أنه سار إلى خيبر، وقد عرفوا أنها قرية الحجاز ريفًا ومَنَعة وجمالا، فهم يتحسسون الأخبار ويسألون الركبان. فلما رأوْنى قالوا: "الحجاج بن علاط عنده - والله - الخبر!"

(قال): ولم يكونوا علموا بإسلامى. فقالوا: "أخبرنا

يا أبا محمد، فإنه بلغنا أن القاطع[1] قد سار إلى خيبر، وهي بلد يهود وريف الحجاز". (قال): قلت: "قد بلغني ذلك وعندي من الخبر ما يسركم". فالْتَبَطُوا بجنبَيْ ناقتي[2] يقولون: "إيه يا حجاج"! (قال): قلت: "هزم هزيمة لم تسمعوا بمثلها قط، وقتل أصحابه قتلا لم تسمعوا بمثله قط، وأسر محمد أسرًا!

وقالوا: لا نقتله حتى نبعث به إلى مكة، فيقتلوه بين أظهرهم بمن أصاب من رجالهم"!.. فقاموا وصاحوا بمكة وقالوا: «لقد جاءكم الخبر، وهذا محمد إنما تنتظرون أن يُقْدَم به عليكم فيقتل بين أظهركم»! (قال): قلت: "أعينوني على جمع مالي بمكة على غُرَمائي، فإني أريد أن أقدم خيبر فأصيب من فَلِّ محمد وأصحابه، قبل أن يسبقني التجار إلى ما هنالك". فقاموا فجمعوا لي مالي كأحثِّ جمع سمعت به. (قال): وجئت صاحبتي فقلت: "مالي! - وقد كان لي عندها مال موضوع - لَعلي ألحق بخيبر فأصيب من فُرَص البيع قبل أن يسبقني التجار".

(قال): فلما سمع العباس بن عبد المطلب الخبر وجاءه عني، أقبل حتى وقف إلى جنبي، وأنا في خيمة من خيم التجار، فقال: «ياحجاج، ما هذا الخبر الذي جئت به»؟ قلت: هل

---

(١) يعنون رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

(٢) التبطوا: أسرعوا فأحاطوا بها.

عندك حفظٌ لما وضعتُ عندك»؟ قال: «نعم». قلت: «فاستأخِرْ عني حتى أفرُغ». (قال): فلما فرغت من جمع كل شيءٍ كان لي بمكة وأجمعت الخروج، لقيت العباس فقلت: «احفظ عليّ حديثي يا أبا الفضل - فإني أخشى الطلب - ثلاثًا، ثم قل ماشئت». قال: «أفعل». قلت: «فإني - والله - تركت ابن أخيك عروسًا على بنت ملكهم - يعني صفية بنت حيي بن أخطب - ولقد افتتح خيبر وانتَشَل[1] ما فيها وصارت له ولأصحابه». قال: «ما تقول ياحجاج»! قلت: «إي والله، فاكتمْ عني، ولقد أسلمت، وما جئت إلا لآخذ مالي فَرَقًا[2] من أن أغلب عليه. فإذا مضت ثلاث فأظهرْ أمرك، فهو - والله - على ما تحب»..

(قال): وسرت.. حتى إذا كان اليوم الثالث، لبس العباس حلة له، وتحلَّق[3]، وأخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى الكعبة فطاف بها. فلما رأوه قالوا: «يا أباالفضل، هذا - والله - التجلد لحرِّ المصيبة». قال: «كلا! والله الذي حلفتم به لقد افتتح محمد خيبر، وتُرِك عروسًا على ابنة ملكهم، وأحرز أموالهم

(١) انتشل: استخرجه وأحرزه.
(٢) فرقًا: خوفًا.
(٣) تحلق: تعطر وتطيب.

وما فيها فأصبحت له ولأصحابه». قالوا: «من جاءك بهذا الخبر»؟ قال: «الذى جاءكم بما جاءكم به، ولقد دخل عليكم مسلمًا فأخذ ماله وانطلق، ليلحق بمحمد وأصحابه فيكون معه». قالوا: «يالعباد الله!! انْفَلَتَ عدو الله: أما - والله - لو علمنا لكان لنا وله شأن!».. ولم يلبثوا أن جاءهم الخبر»[1].

كان انتصار المسلمين على يهود خيبر موضع دهشة الناس وعجبهم

هكذا كان وقع الخبر شديدًا على نفوس قريش، ولا شك أنه كان كذلك مذهلا وعجيبًا؛ فإن قريشًا لم تكن تتوقع أن تنهار خيبر بهذه السرعة، وهى ما هى من القوة والمنعة والحصانة، ولم تكن تظن أن محمدًا وأصحابه يبلغون من القوة هذا المبلغ العجيب.. والحق أن انتصار المسلمين على يهود خيبر يدعو إلى التفكير والتأمل؛ فقد كان اليهود من القوة الظاهرة بحيث لم يكونوا يُغْلبون: كانت عِدَّتهم عشرة آلاف مقاتل مدربين على فنون القتال؛ وكانوا أقوى الطوائف الإسرائيلية بأسًا فى الحرب، ومهارة فى الرمى، وشجاعة فى القتال؛ وكانت لهم حصونهم القوية، وآلاتهم الثقيلة، وزادهم الوفير؛ وكانت لديهم

(١) نهاية الأرب.

كل أسباب الحمية التى تدعو إلى الاستماتة فى القتال، من حماية للحُرَم، وذَوْد عن الوطن، ودفع للعدوان.. ولم يكن المسلمون فى عددهم يزيدون على ألف وستمائة، ولم يكن معهم من آلات القتال سوى السيوف والرماح والقِسِيِّ والسهام، ولم يكن وراءهم حصن يحتمون به ولا ظهر يلجأون إليه، وكانوا على ذلك فى قلة من الطعام وشح من القوت وبعد من المدد.

ومع كل هذا التباين الواضح بين الفريقين فى العدد والعدة، وفى المنعة والقوة؛ ومع هذا الفارق الملموس فى تكافؤ الفرص وتهيؤ الأسباب، انتصر المسلمون على اليهود هذا الانتصار الباهر.. أليس هذا أمرًا يدعو إلى التأمل والتفكير؟

لا شك أن ذلك النصر العجيب قد بهر قريشًا وأذهلها، وبهر معها العرب وغير العرب فى أنحاء الجزيرة. ولعل ما كان من إذعان يهود فدك وتيماء دون قتال، وما كان من انهيار وادى القرى واستسلامها بهذه السرعة، كان أثرًا من آثار هذا البَهْر الذى أخذ بألباب الناس فأذهلهم، وملأ قلوبهم بالرعب من هذه القوة الخارقة، التى لا تقوم لها كثرة ولا تعوقها حصون، ولا يحول بينها وبين الوصول إلى غاياتها شىء من الأشياء. ولقد كان يهود خيبر من الثقة بأنفسهم بحيث لا يظنون أن رسول الله يغزوهم، ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ

مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وقَذَف فى قُلُوبهمُ الرُّعْب﴾[1].

نعم، فقد كان الرعب الذى قذفه الله فى قلوب اليهود، من أهم العوامل فى ظهور المسلمين عليهم. وصدق رسول الله ﷺ إذ يقرر هذه الحقيقة فيقول: "نُصِرْت بالرعب مَسِيرَة شهر".. ويعجبى فى هذا المقام قول القرطبى فى تفسير قوله تعالى: ﴿وأُخْرَى لم تَقْدِروا عليها قَدْ أحاط اللهُ بها﴾؛ وذلك إذ يقول - بعد أن رجَّح أنها خيبر وعدَها الله نبيَّه قبل أن يفتحها -: «معنى قد أحاط الله بها: أى أعدها لكم، فهى كالشىء الذى قد أحيط به من جميع نواحيه فهو محصور لا يفوت، فأنتم وإن لم تقدروا عليها فى الحال فهى محبوسة عليكم لا تفوتكم». وسواء أكان المقصود خيبر أم سواها مما كان من الفتوح الإسلامية بعد خيبر، فإنه تصوير دقيق لما كان من تأييد الله للمسلمين، فيما فتحه عليهم من أقطار الأرض.

قضت غزوة خيبر على استقلال اليهود ونفوذهم فى الحجاز

كان من نتائج خيبر أن قُضى قضاء تامًّا على القوة السياسية والاقتصادية والدينية التى كانت لليهود فى أقاليم الحجاز، وأخذت ظلالهم تتقلَّص شيئًا فشيئًا حتى اتَّحت آثارهم تمامًا؛ فقد بقى

(١) سورة الحشر الآية ٢.

اليهود على عهد رسول الله ﷺ فى الأرض يعملون بها على ما عاهدهم عليه، فلما تَوَفى الله نبيَّه أقرها أبو بكر بأيديهم على المعاملة التى عاملهم عليها الرسول حتى تُوُفى؛ وأقرها عمر صَدْرًا من إمارته؛ ثم بلغ عمر أن رسول الله قال فى وجعه الذى قُبض فيه: «لا يجتمعنَّ بجزيرة العرب دينان».. ففحص عمر عن ذلك حتى بلغه الثَّبْت، فأرسل إلى اليهود فقال: «إن الله، عز وجل، قد أذن فى إجلائكم؛ فقد بلغنى أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: «لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان»؛ فمن كان عنده عهد من رسول الله من اليهود فليأتنى أُنفِذه له، ومن لم يكن عنده عهد من رسول الله من اليهود فليتجهز للجلاء».. فأجلى عمر من لم يكن عنده عهد من رسول الله ﷺ منهم. وقد أخرج عمر يهود خيبر وفدك، ولم يخرج أهل تيماء ووادى القرى لأنهما داخلتان فى الشام.. وكان عمر يرى أن ما دون وادى القرى إلى المدينة حجاز، ومن وراء ذلك الشام. «وقد بقيت الأغلبية لليهود فى وادى القرى إلى القرن الحادى عشر، وكذلك وُجدت طوائف منهم فى جهات تيماء فى القرن الثانى عشر للميلاد، ثم انعدم وجودهم فى الحجاز وأطرافها شيئًا فشيئًا، حتى اختلطوا فى بقية الأعراب واندمجوا فيهم»[1].

(١) تاريخ اليهود فى بلاد العرب بتصرف، والبداية والنهاية لابن كثير.

أيقن العرب بعد هذه الغزوة أن لاحيلة لهم فى مقاومة هذا الدين

وكما قضت غزوة خيبر على استقلال اليهود ونفوذهم، قضت على عنفوان قريش وكبريائها، ووَقَفتها أمام قوة الإسلام ذاهلة مغلولة اليدين، لا تدرى ماذا تصنع حيال هذا السيل الجارف الذى لا تستطيع له صدًّا، وهذا القضاء النازل الذى لا تملك له ردًّا. وهكذا أيقنت قريش وأيقن العرب معها أن لا حيلة لهم فى مقاومة هذا الدين، فاستسلموا لواقع الأمر، ولم يعد هناك من يفكر فى مناوأة الإسلام من أهل الجزيرة غير شرذمة قليلة من أعراب البوادى، جعلوا يتعرضون له كما يتعرض الغُثَاء فى طريق السيل، فيكتسحه السيل أمامه ثم يُلقى به على جوانبه. وكان لابد لهؤلاء أن تنالهم عصا التأديب؛ فكان رسول الله ﷺ يبعث إلى هنا وهناك سراياه فى فرق كفرق الشرطة، لتوطيد الأمن، وتمكين الدعاة إلى الله من أن يجوبوا الآفاق بتعاليم الرسالة، دون غدر أو خيانة.